الجزء الثامن

«إن من يعمل لصالح الدولة يكون الحق غايته».

- دانتي اليجيري.

«لكل كاثوليكي الحق في أن يستأنف القرار الصادر عن بابا مهرطق».

- وليم اوكامي.

الانهيار

أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع

الفصل الحادى والعشرون

فشل الوفاق الجديد

١ - رغبة الموت فى مجتمع العصور الوسطى:

فى سنة ١٢٧٠ ذهب الملك المسيحى المثالى، لويس التاسع ملك فرنسا، للقاء ربه، ثم لحق به بعد عامين هنرى الثالث ملك انجلترا الذى كان خادما مطيعا للبابوية. وغلب على سياسة خلفائهما طابع جديد من الوحشية والعناد طوال السنوات العشرين التالية. ففى سنة ١٢٧٢ اختفى الدكتور الملائكى توماس أكويناس هو الآخر من مسرح الأحداث. وبينما واصل تلاميذه الدومينيكان سيطرتهم على كلية اللاهوت فى الجامعة، كان عليهم أن يدافعوا عما قام به توماس من المزج بين العلم والدين. وفى سنة ١٢٧٧ قام أسقف باريس بحركة طائشة غير محسوبة؛ إذ نشر عدة فرضيات وأدانها على أساس أنها أفكار رشدية خاطئة، ولكنها من بعض الوجوه يمكن أن تفسر على أنها إدانة لبعض التعاليم التوماسية؛ ومن الواضح أن هذا التلميح كان مقصودًا تمامًا. وقد أخذ بعض الفرنسسكان الشبان فى أوكسفورد، ممن فرضت عليهم القيود بعد موت بونافتيرا سنة ١٢٧٤، من الإدانة التى نشرت سنة ١٢٧٧ نقطة انطلاق للهجوم على التوماسية، وبدأوا يتحركون نحو موقف رمزى ثورى. ففى سبعينيات القرن الثالث عشر، أو بعدها بقليل، كان النمو السكانى والازدهار التضخمى الذى تميز به الاقتصاد الأوربى منذ منتصف القرن العاشر قد بدأ فى التلاشى والضمور، وانزلقت أوربا شمال الألب فى تدهور طويل ومُرْبِك استمر حتى منتصف القرن الرابع عشر، مما جلب السخط الاجتماعى والتمرد الذى يشيع فى مرحلة الانكماش الاقتصادى.

هذه الحوادث تميز سبعينيات القرن الثالث عشر باعتبارها الخط الفاصل العظيم فى التاريخ الوسيط. ذلك أنها كانت بداية فترة مدمرة من الانهيار والعنف استمرت نصف قرن، ولم تنته تماما حتى أخريات القرن الخامس عشر. وبحلول سنة ١٣٢٥ كان العمل الذى استغرق قرونًا قد انهار وتبعثرت أشلاؤه، كما تحلل النظام الفكرى

والأخلاقى لمجتمع العصور الوسطى. ففى غضون هذه السنوات الخمسين انقلبت الملكية الفرنسية على حليفتها (التى كانت من أسباب وجودها إلى حد ما)، بابوية العصور الوسطى، واغتالتها ببساطة لتحطم هيبتها وسلطانها فى سنوات قلائل. ولم يتمرد أكبر المفكرين فى نصف القرن الذى أعقب وفاة توماس أكويناس ضد العالم الفكرى المنظم الذى خلقه فحسب، وإنما هاجموا الكنيسة فى سلطانها ورجالها. كما أنهم كانوا يبجلون الدولة باعتبارها القائد الوحيد للمجتمع الأوربى. ومع شروق شمس سنة ١٣٢٥ أخذت رياح الهرطقة الشعبية العاتية، التى كانت قد سكنت منذ منتصف القرن الثالث عشر، تهب من جديد على أوربا. لقد أصيبت حضارة العصور الوسطى بجرحها فيما بين سنة ١٢٧٠ وسنة ١٣٢٥، وبقى عليها أن تعانى من العذاب الطويل القاتل الناجم عن الفوضى والمصاعب خلال السنوات المائة والخمسين التالية.

فلماذا تحللت حضارة العصور الوسطى، التى كانت من نتاج عمل إبداعى خلاق على مدى قرون عديدة، فجأة وبمثل هذه السرعة؟ من الممكن أن نجرب اجابة عملية جدا مؤداها أن الأخطاء فى السياسة البابوية، وطموحات بعض الملوك ونزوات بعض المفكرين البارزين - كانت كلها من أسباب ما حدث. فلو أن سان لويس وسان توماس كانا ما يزالان يتحكمان فى عالمى السياسة والفكر فى العصور الوسطى، لما حدثت هذه الكارثة على الإطلاق! ولكن الحقيقة أن أولئك الزعماء الذين تولوا قيادة المجتمع فى السنوات الخمسين التى تلت سنة ١٢٧٠، كانت لهم أهداف وأساليب غير أهداف وأساليب أسلافهم. فلم يكونوا أقل قدرة من الدكتور الملائكى والملك القديس، ولكنهم أرادوا أن يتصرفوا بوسائل مختلفة. وطريقة أنف كليوباترة لا تؤدى إلى شيء سوى تجنب السؤال الكبير فى التاريخ والقائل: لماذا اختلف زعماء المجتمع الأوربى فى سنة ١٣٠٠ بهذه القوة فى مواقفهم عن جيل منتصف القرن الثالث عشر.

من الممكن أن نطرح إجابة حتمية على أساس افتراض أن الحضارات كائنات عضوية تمر بدورة حياتية ثم تختفى. فكل حضارة تمر بالميلاد، والشباب، والنضج، والكهولة، ثم الموت. ويعتقد فلاسفة العالم القديم فى هذه النظرية، كما أن اشبنجلر Spengler وكثيرين غيره من مفكرى القرن العشرين يؤمنون بدورة الحضارة فى الربيع، والصيف، والخريف، ثم الشتاء. والحقيقة أن الحضارة لا تظهر لتكون كائنا عضويا يمضى فى مساره ثم يختفى، على الرغم من أنه قد يكون ذا تأثير قوى على

الأفكار والمؤسسات فى الحضارات المتأخرة، ومن خلال تراثها، تصبح خالدة. ويخطىء التفسير الحتمى للتاريخ فى أنه ينكر الحرية الإنسانية. ولا يجب الظن بأن الإنسانية تفتقر إلى القوة للسيطرة على مصيرها، وعلى صيانة الحضارة التى أوجدتها قوى الإبداع البشرية. والمعالجة الحتمية للتاريخ معالجة معقولة، بيد أنها تسىء إلى الأخلاقيات.

فالحضارة، شأنها شأن أى إنسان لها إرادة الحياة، ولكنها أيضا قد تصل إلى حال عصابية تجعلها راغبة فى الموت[1]. وحضارة العصور الوسطى، خلال نصف القرن الذى أعقب سنة ١٢٧٠، بعنفها وتطرفها، وتدميرها الانتحارى لقيمها ومثلها العليا، كشفت عن أن لديها الرغبة الانتحارية فى تدمير نفسها، تماما مثلما حدث فى العصور الوسطى الباكرة، عندما أظهرت إرادة الحياة فى مواجهة العقبات المادية الرهيبة. فما هو أصل الرغبة العصابية للإنتحار لدى مجتمع العصور الوسطى؟ لقد كان ذلك ناتجًا عن القمع والكبت، كما هو الحال عند الأشخاص المصابين بالعصاب. ذلك أن الكبت المستمر للمشاكل الصعبة والمستعصية قد يؤدى فى النهاية إلى نقطة تصبح عندها هذه المشكلات صراعا لا يمكن اخماده، وتكون النتيجة انهيارا مفاجئا قاتلا. وهذا هو ما حدث لحضارة العصور الوسطى. ذلك أن الروح الإبداعية التى تجلت فى القرن الثانى عشر قد خلقت صراعات معينة وأساسية جدا، دون أن تجد لها الحل فى المجتمع والفكر الإنسانى؛ مثل الصراع بين الدين والعلم، والصراع بين الكنيسة وحرية التجربة الدينية الفردية، والصراع بين سلطة الكنيسة وسيادة الدولة. وخلال السنوات السبعين الأولى من القرن الثالث عشر بذلت حضارة العصور الوسطى أقصى ما فى طاقتها لحل هذه الصراعات وكانت النتيجة وفاقا أوجد الهدوء المؤقت ولكنه لم ينه هذه الصراعات.

والجزء الثانى من «روايات الزهرة»، الذى كتبه بورجوازى جامعى فرنسى، فى أواخر سبعينيات القرن الثالث عشر، والذى يعتبر من أعظم ما أنتجته القرائح الفرنسية فى مجال الأدب فى القرن الثالث عشر - هذا الجزء يكشف فى كل صفحة

---

(١) نحن لا نوافق المؤلف على هذا الرأى الذى يبسط مسيرة البشر الحضارية، ومن خلال كلامه فى الصفحات التالية نجده يناقض هذا الكلام. وفى تصورنا أن اتساع الفجوة بين المثل العليا والقيم من ناحية والممارسات على أرض الواقع من ناحية أخرى من أهم أسباب سقوط الحضارات، على أنه ليس السبب الوحيد بطبيعة الحال. (المترجم)

من صفحاته عن أن السلام الذى أرساه إنوسنت الثالث، والصياغة التوفيقية لفلسفة توماس أكويناس لم تكن ترضى المفكرين من جيل جان دى مون الذى ألف هذا الجزء. إذ أن المثالية الرومانسية التى عرفها القرن الثانى عشر كانت قد صارت باردة قاصرة «وكم هو منحط ذلك العالم الذى جعل الحب للبيع» على حد تعبير مون الذى رأى الطمع والفساد والعفن يسرى فى جميع الاتجاهات. فهو يقول إن العلماء والقانونيين «يبيعون مهاراتهم لقاء المال»، وعلى الرغم من أنه هو نفسه كان بورجوازيًا فإنه لم يكن يرى أية إمكانية فى حصول أبناء طبقته على الخلاص «فليس هناك تاجر على الاطلاق يعيش فى راحة؛ لأنه يمضى عمره فى حرب من أجل الربح، ولكنه لا يحصل على كفايته أبدا» ولا يشعر دى مون تجاه زعماء مجتمع العصور الوسطى بشىء سوى الاحتقار. فالملوك والأمراء «أوجدوا الاستبداد والطغيان وسرقوا الشعب»، وفى كل اتجاه يرى «قساوسة أشرار يهيمنون على الأرض، ويبشرون لكى يكسبوا الرضاء، والشرف، والمال.» كما أن المثل الأعلى الفرنسسكانى أخفق اخفاقًا ذريعًا «الفقر.. مكروه يسبه جميع الناس». كذلك كانت كافة الجهود التى بذلت لخلق كومنولث مسيحى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تبدو عبثا لا طائل وراءه فى نظر دى مون.

لقد وجد الجيل الذى عاش أواخر القرن الثالث عشر أنه يستحيل الحفاظ على النسيج المتهافت الواهى لذلك الوفاق الحاذق الذى شيده الجيلان السابقان عبر الألم والمعاناة. فقد كان النظام العالمى الذى تم بناؤه مع مطلع القرن الثالث عشر دقيقا فى توازنه بدرجة جعلتهم يكتشفون أن بقاءه ضرب من ضروب المستحيل. فضلا عن أنه لم تكن هناك أية حاجة للإبقاء عليه، لأنه فشل فى تحقيق السعادة الإنسانية. لقد أرادوا إنهاء حال الكبت المرهقة والتى أجلت حسم الصراعات بحيث تراكمت من سنة ١١٩٨ إلى سنة ١٢٧٠؛ أى أنهم أخذوا يبحثون عن مخرج عدوانى صوب هدف واضح وثابت. لقد كانوا يريدون إمّا العلم أو الدين، إمّا التدين الشخصى أو السلطة الكنيسية، وإمّا الدولة الحاكمة أو تفوق السلطة الكنسية. أرادوا إنهاء حال التركيب، والدهاء والحلول التوفيقية التلفيقية، وتعقيدات حضارة الحلول الوسطى. أرادوا ترسيخ بعض الأهداف الثابتة الواضحة التى يمكن أن تكون نقط انطلاق جديدة نحو العقيدة والحب. وإذ وجدوا أن التوازنات الحاذقة والحلول التوفيقية فى زمن توماس أكويناس لم تخلص المجتمع من الجشع والفساد، كان لابد لجيل الفترة الأخيرة من القرن الثالث عشر أن يلقى باللوم فى الفشل

الأخلاقى الذى حاق بمجتمعهم على التوليفة التوماسية نفسها. فعلى مرّ السنوات المائة والخمسين السابقة أجريت دراسات كثيرة، وطرحت أفكار عديدة، وراودت الناس أحاسيس كثيرة؛ ومع ذلك لم تتحقق السعادة للبشرية ولم يتحقق الكومنولث المسيحى. لقد كان الناس فى أواخر القرن الثالث عشر يأملون فى أنهم إذا ما اتبعوا أحد الطرفين - بدلا من الوسط الذى خذلهم - يمكن أن يجدوا الحب الجديد والمثالية الجديدة. وفى غمرة تطلعهم المشتاق إلى بساطة التطرف، أخذوا يسعون نحو موت حضارة العصور الوسطى، التى كانت قد باتت عبئا غير محتمل.

٢ - تفكك العالم الفكرى فى العصور الوسطى:

أقام الدومينيكان التوماسية مذهبا رسميا لجماعتهم فى سنة ١٢٨٤م. وسعوا لكى تقبلها الكنيسة لاهوتا رسميا لها. وكانوا يعتقدون أن نظام توماس أكويناس قد حل المشكلات الفكرية التى ظهرت فى القرن الثالث عشر. وزعموا أن سان توماس قد جعل الأرسطية، التى هى أفضل ما عرفه الإنسان من علم، تتناغم مع حقائق الحياة المسيحية، وبرهن على صحة العقيدة المسيحية بالعقل. فقد أوضح أن الإنسان يقف على قمة النظام الطبيعى، ومع ذلك فهو على اتصال بما هو وراء الطبيعة «لأن هدف الإنسان هو تأمل الحقيقة والتفكير فيها». ولكن هذا النظام العقلى المهيب لم يرض بعضا من أفضل المفكرين فى الجيل الصاعد. ففى كل من شمال ايطاليا وانجلترا فى السنوات الخمسين التى أعقبت موت توماس قام المفكرون البارزون بإضعاف النظام التوماسى، ثم هاجموه علانية، وطرحوا مذاهب ذات طبيعة مختلفة تماما. وانتهى بهم الأمر إلى الفصل بين العلم والدين، ورفع الدولة خارج وفوق النظام الأخلاقى كقانون قائم بذاته، من خلال انكارهم للأسس التى تقوم عليها السلطة الكنسية، واحيائهم لتعاليم الهرطقة الشعبية فى القرن الثانى عشر. وبعبارة أخرى، فإنهم هجروا كاتدرائية الفكر التى قامت على اللاهوت التوماسى وتسببوا فى انفصام عرى العالم الفكرى فى العصور الوسطى.

ويمكن أن نتلمس بدايات التمرد ضد التوماسية فى فكر دانتى أليجيرى Dante Alighieri (١٢٦٥ - ١٣٢١م) بجوانبه المتعددة، باعتباره صاحب الاسم الأشهر فى مجال الأدب فى العصور الوسطى. وكثيرا ما عرف دانتى بأنه الشاعر الذى صاغ خلاصة اللاهوت Summa Theologica فى منظومة شعرية، وبأنه تلميذ من أتباع توماس أكويناس، وهناك بعض الجوانب المعقولة فى هذا الرأى، فلا شك فى أن

دانتي تـأثر كثيـرًا بالمـذهب التومـاسي. ولكنه أيضـا كان متعـاطفـا مـع بعض آراء الرشديين، وفي تناوله للفكر السياسي نجد نغمـة ثوريـة جديـدة تتعارض بشـدة مع المذهب السياسي التوماسي. لقد كان دانتي رجلا عالي التعليم عميق التـدين. ولكن ثورية كومونات الشمال الايطالي تتبدى واضحة أيضا في كتاباته. فقد كان يصل إلى آفاق فكريـة جديـدة لم تكن مفهومـة تمامـا. إذ أنه يتـذبذب مـا بين طـرفي مذهب العصور الوسطى التقليدي، والثورية الجسورة، مجسدا بذلك حيرة الجيل الجـديد من مفكري العصور الوسطى.

كان دانتي مواطنا فلورنسيا قضى السنـوات العشرين الأخيـرة من حياتـه منفيا خارج مدينته، التي كان يحبها حبا عميقا، نتيجة إحدى المعارك الفكرية التي سممت حياة كومونات الشمال الايطالي. وكان هو الذي جعل من اللغة الايطالية الدارجـة لغة للأدب. كما أدخل العناصر الرومانسية، التي سادت الشعر الفرنسي ما يزيد على قرن من الزمان، في الأدب الايطالي. وفي قصائده يتجلى ذلك المزج الحاذق بين الحب الدنيوي والحب الآلهي الذي كانت الروايات الفرنسية والألمـانية قـد جعلته محـورا لبنائها الدرامي بالفعل، كما أنه كان يبجل فرجيل وغيره من عـظماء الأدب اللاتيني والكلاسيكي، وكان من رواد التوحيد بين الرومانسية والإنسانية.

والكوميديا الآلهية، أكثر مؤلفات دانتي طموحا، تعتبر أعظم مـا كُتِب من أشعار في العصور الوسطى بوجه عام. وهي ملحمة شعرية رمزية كانت نتاجا لقـدر هائـل من الثقـافة، ومهـارة أدبية لا يشق لهـا غبار. وهي في رأي البعض تلخيص للفكـر المسيحي في العصور الوسطى، وصياغة رمزية في شكل شعري للمبادئ الجوهريـة في الفلسفة التوماسية. وهنـاك الكثير من جـوانب القصور في هـذا الرأي. إذ أن دانتي يصف كيف أنه أقتيد في رحلة من أعماق الجحيم، عبر المـطهر، إلى الجنـة، في صور جمالية أخاذة. وكان مرشدوه الثلاثة في هذه الرحلة رموزا لثلاث مراحل صاعدة من المعرفة. إذ أن فرجيل هو الذي يقوده عبر دوائـر الجحيم حتى المراحـل الدنيـا من المطهر؛ وقد قصد دانتي أن يرمز بهذا الشاعر الروماني الذي كان يهيم به عجابا إلى العقل الذي يمكن أن يعلم الناس بجهوده الخاصة كيف يهـربون من اللعنـة بالحيـاة الطيبة الخيرة. وفي المراحل العليا من المـطهر، وفي كـافة مـراحل السـماء، باستثنـاء المرحلة العليا، تتولى إرشاد دانتي سيدة تدعى بياتريس، وهنـاك سيدة بـذات الاسم لعبت دورًا هـاما في حيـاة دانتي، على الـرغم من أنهما كانـا يلتقيان نـادرًا، كما أنها تزوجت من أحد المصرفيين الأثرياء في فلورنسـا. وهي ترمز إلى النموذج الرومانسي

إيطاليا في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي.

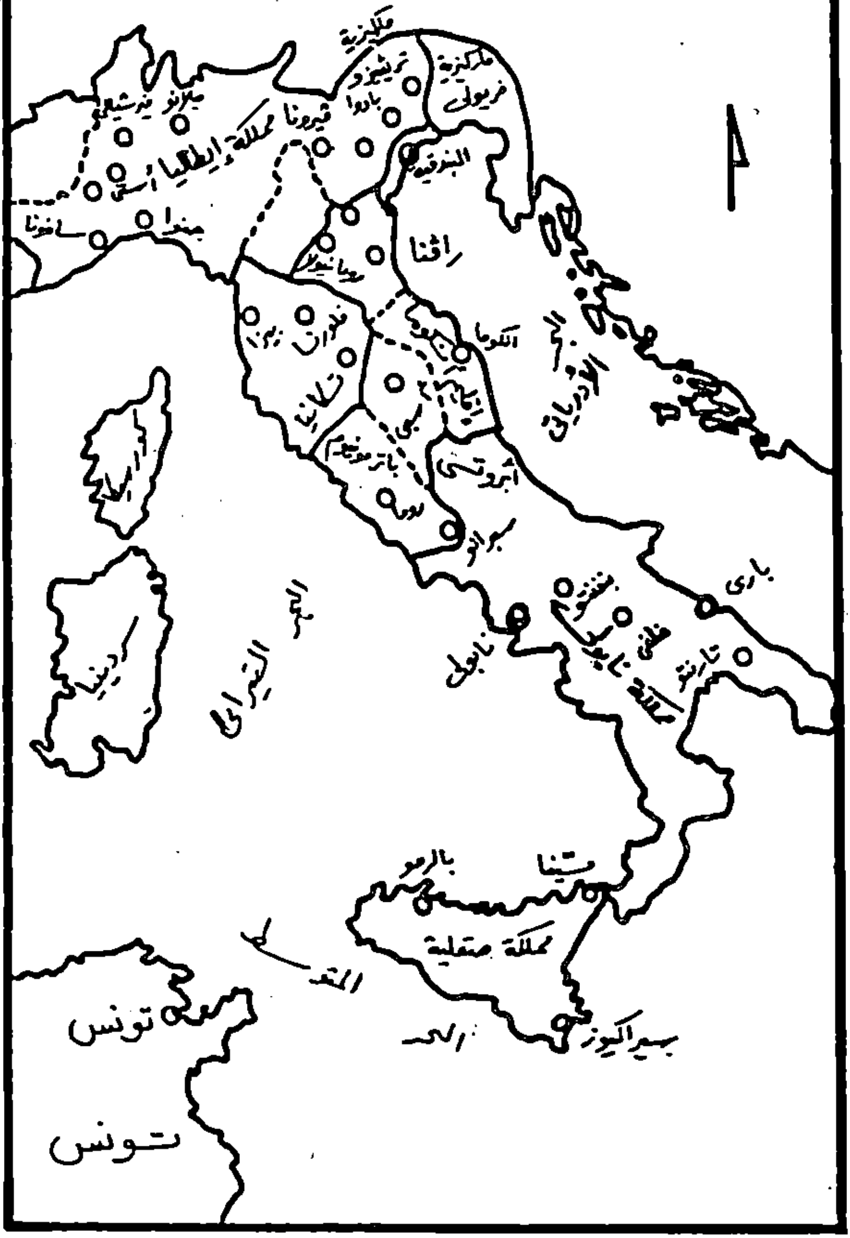

للحب الدنيوى والآلهى فى نظر دانتى، كما أنها تمثل الرحمة أو الحب الآلهى فى الكوميديا الآلهية، أى أنها تمثل الدين أو الكنيسة، التى كانت خدماتها وطقوسها السبيل الوحيد إلى الخلاص والدخول إلى السماء. وأخيرًا، كان دليله لمواجهة الروح القدس هو سان برنار الذى يرمز إلى التجربة الصوفية. وهناك تشابه بين الحج الدينى على هذه الصورة وبين الفلسفة التوماسية. إذ كان توماس ودانتى يتفقان على قدرة العقل لارشاد الناس إلى مبادئ الحياة الطيبة، وضرورة وجود الكنيسة لتحقيق هذه الإمكانية وفهم الحقائق السامية. وتحديد دانتى للصوفية بأنها أسمى أشكال المعرفة مستمد من تعاليم الفرنسسكان وليس من الفلسفة التوماسية الدومينيكانية. ويظهر كل من سان فرنسيس، وسان دومينيك فى نفس الدائرة من السماء، وأخيرًا تنتهى الملحمة الشعرية بصلاة للعذراء.

وعلى أية حال، فهناك بعض جوانب فى الكوميديا الآلهية تختلف كثيرًا مع ما بها من تعاليم مسيحية وتقليدية عامة. إذ أن سيجيه البرابنتى Siger of Brabant، الفيلسوف الرشدى المعارض لسان توماس أكويناس يسكن فى سماوات دانتى. كما أن الملحمة حافلة بالتعبيرات التى تجسد انعداء تجاه مزاعم البابوية. إذ يضع دانتى ادانة مريرة على لسان القديس بطرس «للذئاب النهمة التى تتخفى فى زى الحملان»، والذين خانوا مناصبهم، كما أنه لم يكن راضيا عن معاصره بونيفاس الثالث بصفة خاصة، فأرسله إلى الجحيم. ويرى دانتى أنه من المؤسف أن قنسطنطين أعطى هبته للبابا، وبذلك ورط نائب المسيح فى الأمور الدنيوية. وهناك قصور أكثر عمقا يشوب ايمان دانتى، كما أن رؤيته للجحيم، والمطهر، والنعيم تشى بأن المذهب الأخروى كان فى طريقه نحو الزوال. لقد كشف البناء الشعرى لهذه الصورة التفصيلية للكوزمولوجيا الدينية عن أن المذاهب التقليدية قد فقدت حيويتها وطرافتها، وصارت أنماطا عرفية. وليس معنى هذا أن دانتى لم يكن يؤمن بوجهة النظر الكاثوليكية عن الخلاص، ولكنه أوغل فى هذه المذاهب بحيث أن الخط الفاصل بين الخيال الأدبى والحقيقة اللاهوتية بات غير واضح.

والمضامين الثورية فى فكر دانتى تتبدى أكثر وضوحا فى مقالته عن «الملكية». والظاهر أنها كتبت للدفاع عن حقوق الامبراطور وسلطاته فى ايطاليا، لأن دانتى كان يعتبره حاكم ايطاليا الشرعى. ولأنه كان يعتمد عليه فى استعادته لمركزه. والحقيقة أن الملك الألمانى هنرى السابع جاء بالفعل إلى ايطاليا فى حياة دانتى، ولكنه لم يلبث أن عاد دون أن يفعل شيئا لإنهاء نفى دانتى واعادته إلى فلورنسا

مدينته المحبوبة. وأهمية الكتاب لا تكمن فى مناقشاته التقليدية المستمدة من التراث القانونى والتاريخى حول سمو سلطة الامبراطور الرومانى فى العالم، وإنما تتمثل بشكل أكثر وضوحا فى موقفه الجديد. ويلمح دانتى بصورة طيبة إلى المذهب الرشدى عن الخلود الكلى للروح، وهو أمر يتناقض بشكل غريب مع موقف دانتى نفسه من الخلود الشخصى والذى بنى «الكوميديا الآلهية» على أساسه. إذ أنه يناقش التفسير البابوى التقليدى للنص الوارد فى الكتاب المقدس عن بطرس، وفى رأيه أن كلمات المسيح لبطرس «**لا يترتب عليها أن البابا يمكن أن يحل أو يربط فى أمور الامبراطورية**» وهو ينكر صحة المزاعم الامبراطورية المؤسسة على هبة قنسطنطين لأن «**قنسطنطين لا يملك سلطة نقل المنصب الامبراطورى، كما أن الكنيسة هى الأخرى لا تملك قبوله**؟ وأهم ما فى الأمر هو دفاع دانتى عن السلطة الامبراطورية، ليس فقط على أساس التراث والقانون ونصوص الكتاب المقدس، وإنما أيضا انطلاقا من مذهب بسيط وثورى عن الضرورة النفعية؛ فهو يقول إن مصلحة الجنس البشرى تتحقق على نحو أفضل فى ظل الحكم الملكى. ويعتبر هذا انعطافا جديدًا فى الفكر السياسى فى العصور الوسطى. وما يلمح إليه دانتى فى مجادلاته هو أن السلطة السياسية لا تقوم على أساس من القانون الطبيعى والآلهى فقط، وإنما تتأسس أيضا على الضرورة الاجتماعية.

والنظرية النفعية للقانون التى طرحها دانتى تتمثل على أوضح صورة فى كتاب «المدافع عن السلام» الذى نشره مارسيليو البادوانى Marsilio of Padua (ت ١٣٤٣ م) فى عشرينيات القرن الرابع عشر وهو نتاج آخر للحياة الكوميونية فى شمال إيطاليا. وما لم يرد صراحة فى كتاب «الملكية» لدانتى، ناقشه مارسيليو بالتفصيل الشديد. فهو يقول بأن أساس القانون يكمن فى خاصيته الآمرة الملزمة. ولا يحتاج القانون إلى أن يكون ذا محتوى أخلاقى؛ إذ أن إرادة الشارع هى التى تصنع القانون. وهكذا يعارض مارسيليو، بأوضح صورة، المذهب التوماسى القائل بأن سلطة الدولة تخضع لنظام خالد ومطلق من القيم والمثل العليا التى تجعل للقانون الوضعى قيمته. فليست للقانون، فى رأى مارسيليو، أية فعالية بدون الارادة المطلقة للدولة. وهو بهذا يقترب من مذهب السيادة الذى عبر عنه بودين Bodin ونظرية هوبيز Hobbes النسبية عن القانون فى القرن السابع عشر. فالكنيسة، مثل أية هيئة أخرى فى الدولة، تخضع للقانون. وهكذا يقلب مارسيليو مذهب السلطة الكنسية القائل بتفوق سلطة البابا رأسا على عقب. فبدلا من أن تكون الدولة

خاضعة تماما للمساندة المعنوية من الكنيسة؛ كانت الكنيسة هى التى تخضع لارادة الدولة المطلقة. والسماح للكنيسة بأية سلطات تشريعية، أيا كانت، «أمر لا يتوافق مع سلام البشر». وفى كتاب مارسيليو البادوانى تأخذ النزعة الثورية لدى أبناء الكوميونات الايطالية شكلا فكريا محددا، وتعبر عن مذهب سياسى يهاجم الرابطة بين الدولة والسلطة الأخلاقية هجوما عنيفا للغاية. وكتاب «المدافع عن السلام» Defensor Pacis يجعل من الدولة قانونا بحد ذاتها.

وثمة نزعة رشدية ثورية تكمن خلف محاولة مارسيليو لفصل الدولة عن النظام الأخلاقى. ذلك أن نظرية ابن رشد عن الحقيقة المزدوجة، وفصله بين دنيا العلم، وعالم الدين، تتجلى واضحة فى الفلسفة السياسية لنظرية مارسيليو النفعية التطوعية للقانون. فقد وقع مارسيليو تحت تأثير 'الفلسفة الرشدية فى شمال إيطاليا، التى كانت عند مطلع القرن الرابع عشر قد تأثرت بتعاليم الفيلسوف العربى. وخلال القرنين التاليين كانت الفلسفة الرشدية تمثل تيارا هاما فى فكر العصور الوسطى، حيث كانت تشع من إيطاليا ليصل نورها إلى بقية أنحاء أوربا.

وقد تأكد مذهب ابن رشد عن ازدواج الحقيقة عندما روج زعماء جامعة أوكسفورد الفرنسسكان لمذهب مماثل يفصل بين الدين والعقل، فى الوقت الذى كانت الفلسفة الرشدية تنتشر من إيطاليا صوب الشمال فى القرن الرابع عشر. ولكن أولئك المفكرين الفرنسيسكان فى أوكسفورد لم يكونوا رشديين؛ فالواقع أن إدانة أسقف باريس للفلسفة الرشدية سنة ١٢٧٧، كانت بمثابة نقطة البداية التى انطلقوا منها لتحقيق تطورهم الفكرى. ومع هذا فإن جامعة أوكسفورد الفرنسسكانية توصلت إلى نفس النظرية التى روج لها الرشديون بعد نصف قرن من هذا التاريخ؛ هذه النظرية مؤداها أن العقل والدين ينتميان إلى عالمين مختلفين ولا يمكن أن يتحقق لهما الاندماج.

ومنذ البداية لم يكن الفلاسفة الفرنسسكان سعداء بفلسفة توماس أكويناس الأرسطية المسيحية. وانسجاما مع الموقف العام لجماعتهم، كانوا يتطلعون صوب الفلسفة الأوغسطينية القديمة أكثر من تطلعهم صوب الفلسفة الأرسطية الجديدة. وكان سان بونافنتيرا قد طرح مذهبا يؤكد من جديد تراث العصور الوسطى الباكرة الفلسفى. فقد تمسك بالنظرية الأوغسطينية الأفلاطونية عن إنارة العقل بالأفكار الالهية، ونتيجة لهذه النظرية الأفلاطونية عن المعرفة تأكدت فلسفة سان

آنسلم الواقعية بفضل الفلاسفة الفرنسسكان، وخصوصا بونـافنتيرا. فقـد كان يؤمن بأن هذه الفلسفة الأوغسطينية - الأفلاطونية - الواقعية تقدم أرضية فكـرية أكـثر صلابة من الحتمية الأرسطية، والاصرار الفـرنسسكانى عـلى القدرة الالهيـة وأولويـة الارادة. وقد تابـع خلفاؤه نفس الهـدف، كما أنهم عـارضوا أرسـطية سـان تومـاس المسيحية. بيد أنهم تخلوا أيضا عن واقعية بونافنتيرا الأفلاطونية المحافظة، وتـوصلوا إلى فلسفة رمزية ثورية قادتهم إلى الحل الواقعى.

كانت وفاة بونافنتيـرا سنة ١٢٧٤، من جميـع الجوانب، خـطا فاصـلا فى تاريـخ الجماعة الفرنسسكانية فقد كان هو الفيلسوف المسيطر بـين الفرنسسكـان، وعندمـا اختفى من على المسرح انطلقت الفلسفة الثـورية التى يمثلهـا الفرنسـسكـان الشبان لا تلوى على شىء. فقد شدتهم إدانة الرشديـة فى سنة ١٢٧٧، وكـانت هذه أيضـا هى أداتهم فى انتقاداتهم القاسية الفلسفة التوماسية. إذ كانوا يعتقدون أن التوماسيـة قـد أخضعت قدرة الله الـواسعة وحـرية الارادة الانسـانية لنـظام آلى من الحتميـة الأرسطية. ولذا فإنه عملوا على الفصل بين الفلسفـة والعلم من ناحيـة، والدين من ناحية أخرى. وعلى أية حال، فـإن بونـافنتيرا لم يكن أكـبر فيلسوف فـرنسسكانى فحسب، وإنما كان أيضا الأستاذ العام لجماعته، كما أنه كان زعيم حـزب المحافـظين بين «الأخوة الصغار». وكان المحافظون يتقبلون التغيرات التى شجعتها البابويـة فى الحياة الفرنسسكانية، وأهمها السماح للجماعة بالامتلاك. وهنـاك مجموعـة صغيرة فى الجماعة عرفت باسم «الروحانيين» رفضوا قبول هذه الانحرافات عن تعـاليم سان فرنسيس الأصلية، وبدأ نضال مرير قسم الجماعة إلى جنـاح ثورى وجنـاح محافظ. وبدأ «الروحانيين»، بإصرارهم على فقر الجماعة، يطالبون بالفقر الحـوارى للكنيسة بأسرها، وأخذوا يطرحون التسـاؤلات عن السلطة العلمانية للبابـوية وعن ممتلكـاتها المادية على نحو خاص.

وفى خمسينيات القرن الثالث عشر أعاد «الروحانيون» الايـطاليون بعث أفكـار يـواقيم الفلورى الهرطقيـة والتى كانت الكنيسـة قد أدانتهـا منذ زمن طـويل عـلى أساس أنها من أشد الهرطقات خطورة. وطبقوا أفكار يواقيم على الموقف الذى كان قائما داخـل جماعتهم، فقـالوا بـأن البابـا هو المسيـح الدجـال، وأن المحافـظين هم عمـلاؤه. وزعموا أن عصـر الروح القـدس سوف يجىء ليـطيح بـالمسيح الـدجال، وينهى حكم القساوسة المعيب. وأن جماعة رهبانية متسولة جـديدة، سـوف تنبثق من الفرنسسكان الروحانيين ستجلب العصر الجديد للروح القدس. وقد تسبب إخلاص

الروحانيين للمثل الأعلى الفرنسسكانى الأصلى وإحياؤهم لمذهب الفقر الحوارى للكنيسة، والهرطقة اليواقيمية - تسبب فى حدوث فوضى خطيرة بين الرهبان الفرنسسكان. ففى سنة ١٢٥٧ أدين الرئيس العام للجماعة بسبب تعاطفه مع الروحانيين وخلع من منصبه. وخلفه سان بونافنتيرا، الذى قبل الموقف المحافظ ولكنه حاول أن يلين عريكة الروحانيين ويعيد توحيد الجماعة. وتم ترتيب ذريعة قانونية أتاحت للبابا فرصة التحفظ على أملاك الفرنسسكان حتى يمكنهم أن يحتفظوا بوضعهم الرسمى كمتسولين. وفى الربع الأخير من القرن الثالث عشر أمكن تجنب تفكك هذه الجماعة الرهبانية التى كانت أداة فعالة فى استعادة هيبة الكنيسة بين العلمانيين. فقد انسحب كثيرون من الروحانيين إلى حياة النسك، وظل المحافظون يسيطرون على الجماعة. ولكن الروحانيين لم يتخلوا عن إيمانهم بمذهبهم الثورى؛ إذ كان يساندهم بعض من أقدر الرجال فى الجماعة، وبعد سنة ١٣٠٠ امتزج تيار الثورية الروحانية بين «الأخوة الصغار» بتيار الثورية الفلسفية بين أساتذة أوكسفورد الفرنسسكان.

بدأ تقدم فرنسسكان أوكسفورد صوب الرمزية بالعالم دونيس سكوتوس Duns Scotus (١٢٦٦-١٣٠٨) الذى كان أعظم علماء المنطق فى العصور الوسطى، وقد ولد باسكتلندا كما يتضح من اسمه؛ وانضم إلى الفرنسسكان، ودرس فى باريس، واشتغل بتدريس اللاهوت فى أكسفورد. وهو يبدأ باستفسار علمى خالص حول قوة العقل الانسانى ليخرج من نطاق المعلومات المحسوسة ويصل إلى استنتاج يتناقض مع التفاؤل التوماسى الذى كان يعتقد أنه يمكن أن يقيم بنيان معرفة عقلانية بالله على أساس معرفى مستمد من التجربة الحسية. ويخلص سكوتوس إلى أن العقل الانسانى لا يمكن أن يتوصل إلى وجود الله من خلال الاستدلال المنطقى. فالله لا نهائى ولا محدود ولكن العقل الانسانى محدود. والله قادر على كل شىء، وهو حر فى إرادته؛ أما العقل الانسانى فعلا يمكنه أن يعمل خارج سلسلة من السببية حتى يمكنه أن يتعرف على الوجود الداخلى لله. ولم يكن سكوتس يحاول الحط من شأن الدين، وإنما كان يحاول إبراز أهميته المتفردة؛ لقد كان يحاول أن يجعل الدين هو المصدر الوحيد لمعرفة الوجود الالهى. وكان يظن أنه قد حمى القدرة الالهية وحرية الارادة من تأثيرات الفلسفة التوماسية التى تضع القيود فى سبيلها.

ومات دونس سكوتس وهو فى قمة قوته العقلية، وقبل أن يتمكن من استكمال كتابه. وأهم دلالات مذهب سكوتس هى التى أبرزها وليم الأوكامى William of

Occam (ت ١٣٥٠) وهو فرنسسكانى من أوكسفورد أيضا، ولم يكن يتعدى الثلاثين من عمره. لقد أحدث وليم أوكام ثورة فى الفلسفة المدرسية حيث فصل تماما بين المنطق والميتافيزيقا. وكان سكوتس قد اقترح هذا بالفعل، ولكن أوكام هو الذى جعل الفصل بينهما مطلقا وتاما. فقد قال بأن المنطق لا يتعامل مع الوجود بافتراضات تبدأ من نقطة بداية بالتوافق مع الحقيقة أو الوجود. فالفروض العقلية هى أشكال خالصة من الفكر فارغة من كل محتوى ميتافيزيقى، ولا تربطها بالحقيقة النهائية رابطة. «ووجودها هو وجودها المدرك». فالمنطق إذن لا يتناول سوى صيغ المغزى، أو «المصطلحات»، ولكننا حينما نتساءل عما إذا كانت المعرفة الميتافيزيقية ممكنة، أو إذا ما كان من الممكن للانسان أن يعرف الحقيقة النهائية بالعقل، يجيب أوكام على هذه الأسئلة بالنفى. فالكليات مجرد رموز عقلية، بعيدة تماما عن الحقيقة الكلية، وهى رموز تتشكل بواسطة العقل خارج الحواس المتكررة والذاكرة المضطربة التى لا تصلح سوى للأشياء الفردية فقط. ومفاهيمنا عن السببية متوقفة على هذه العملية العقلية وليس لها وجود حقيقى خارج العقل. وبهذا يتوصل أوكام إلى فلسفة اسميه متطرفة تقترب من فلسفة هيوم الامبريقية الراديكالية والتى ينادى بها أيضا بعض فلاسفة القرن العشرين.

كان هدف أوكام هو نفس هدف سكونس؛ إذ كان يريد أن يؤكد ما زعمه الفرنسسكان من أن معرفة الله لا يمكن أن تتأتى سوى من خلال الدين والفطرة فقط، وأن الوجود الالهى لا يمكن معرفته بأية وسيلة عقلية. لأن ذلك يعنى بالنسبة له تحديد الوجود الالهى. لقد استغل الفلسفة للقضاء على مكانة الفلسفة ولكى يعزز الأسلوب الفرنسسكانى فى معالجة الألوهية باعتباره السبيل الوحيد إلى ذلك. وسرعان ما كان لرمزيته المتطرفة، التى تجادل بقوة وفطنة، تأثير كبير على المدارس التى كانت فى ثلاثينيات القرن الرابع عشر مسرح نقاش وجدل كبير بين «المجددين» الأوكاميين، كما عرفوا آنذاك، وبين مؤيدى التوماسية «الطريقة القديمة».

كان أوكام يؤمن بأنه استخدم أسلحة المدارس الجدلية ضد رجال المدارس. إذ أنه كان قد أوضح أن نفس الفلسفة تدعم تعاليم سان فرنسيس عن المعرفة النظرية بالله. وقد أدى إخلاص أوكام لسان فرنسيس إلى تشككه فى عقائد الجناح الراديكالى من الرهبان الفرنسسكان. ففى نهاية القرن الثالث عشر كان الروحانيون قد نشطوا من جديد، وأخذوا يبشرون صراحة بالفقر الحوارى للكنيسة

وبالهرطقة الأخروية التى نادى بها من قبل يواقيم الفلورى. وإذ لم يقنع أوكام بهجومه على التوماسية بدأ يهاجم سلطة البابا الدنيوية ويطالب بالفقر الحوارى للكنيسة. وجلب على نفسه غضب البابا حنا الثانى والعشرين. وقضى السنوات الأخيرة من حياته فى بلاط الملك الألمانى لويس، ملك بافاريا، الذى كان هو الآخر على خلاف مع البابا. وانضم لأوكام الرئيس العام لجماعة الفرنسسكان الذى كان قد انضم إلى الروحانيين، وأحدث بذلك الانشقاق الذى كان يتهدد الجماعة الفرنسسكانية منذ منتصف القرن الثالث عشر، وكان السبب فى انضمامه إلى أوكام هو رغبته فى التمتع بالحماية الملكية، وفى سنة ١٣٢٣ أدانت البابوية مذهب الفقر الحوارى باعتباره هرطقة، وأخذت محاكم التفتيش تطارد أكثر الروحانيين تطرفا فى إيطاليا، وهم الذين عرفوا باسم الفراتيشيللى Fraticelli[٢]. وكانت هذه الصراعات بداية لتدهور حاد فى حيوية جماعة الفرنسسكان وزعامتهم لحركة التدين الأوربية.

وفى بلاط لويس البافارى تقابل أوكام مع مارسيليو البادوانى، الذى كان هو الآخر قد هرب إلى هناك بحثا عن الحماية ضد الغضب البابوى. وواصل الاثنان عملهما فى ظل الحماية الملكية، ويبدو أن أوكام قد تقبل مذهب مارسيليو عن تفوق سلطة الدولة على الكنيسة. فقد زعم أوكام أن البابوية ليست هى فقط التى يمكن أن تخطئ، بل ويمكن أن يخطىء المجمع الكنسى العام أيضا. وبذلك جعل الضمير الفردى هو السلطة الدينية النهائية، وزاد كثيرا فى سلطة الدولة. ولأنه أنكر عصمة البابوية والمجامع الكنيسية العامة من الخطأ والزلل، فقد جعل سيادة الدولة هى القوة العامة السائدة فى المجتمع. لقد كانت الفردية الدينية وسيادة الدولة وجهين مختلفين لعملة فكرية واحدة.

وهكذا التقى رافدان من روافد الفكر الثورى سويا. إذ أن مارسيليو كان قد بدأ بالفصل الرشدى بين العلم والدين، وانتهى أوكام إلى مذهب مشابه عن الحقيقة المزدوجة، وأنكر إمكانية معرفة الوجود الالهى عن طريق العقل. وقد أدان هذان

---

(٢) فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر أطلق هذا الاسم على الاخوة الفرنسسكان فى إيطاليا. وفى بداية القرن الرابع عشر أصبح مرادفا للفرنسسكان الروحانيين الذين أدانوا اتجاهات الجماعة وتوافقها مع اتجاهات الكنيسة التقليدية وفى سنة ١٣١٧ بعد أن أدان البابا حنا الثانى والعشرون جماعة الروحانيين أسس انجيلو كلارينو Angela Clareno (ت ١٣٣٧)، الراهب الفرنسسكانى جماعة الفراتسيللى كجماعة مستقلة

التيارات سلطة البابا الدنيوية، وجعلا الكنيسة مؤسسة روحانية خالصة، وسمحا بسمو سلطة الدولة وتفردها فى المجتمع. لقد شنت الحركات الفكرية الكبرى فى غضون نصف القرن الذى أعقب وفاة توماس أكويناس هجماتها على كاتدرائية الفكر من كل جانب، وذلك بالتأكيد على تفوق الارادة - تفوق الارادة البشرية على العقل البشرى وتفوق إرادة الله المطلقة على العلة الضرورية الأولى المدركة عقليا والتى تنادى بها التوماسية، وتفوق إرادة الدولة على النظام الأخلاقى.

٣ - العنف الجديد:

كان تجريد مارسيليو البادوانى للكنيسة من سلطتها المعنوية المهيمنة هو الصياغة النظرية للحوادث الرئيسية التى جرت فى أيامه. ففى السنوات الخمسين التى تلت وفاة سان لويس كانت الدولة، التى تحدد شكلها فى الملكية الفرنسية والملكية الانجليزية، قد صارت قانونا بحد ذاتها. إذ رفضت أن تعترف بسلطة الكنيسة وزعامة نائب المسيح، وأخذت حكومة حفيد لويس التاسع على عاتقها مهمة اغتيال بابوية العصور الوسطى وإخضاعها. ذلك أن الكيانات السياسية البارزة فى الحضارة الأوربية آنذاك - وهى انجلترا وفرنسا والدولة الكنسية العالمية التى خلقتها البابوية - كانت قد طورت مؤسساتها وحددت أيديولوجيتها نهائيا فى نهاية القرن الثالث عشر. ولكنها اكتشفت أن أهدافها متضاربة. فقد أدت الاتجاهات التوسعية لكل من الملكية الفرنسية والملكية الانجليزية إلى نشوب صراع لا يمكن التحكم فى مساره بين القوتين الكبيرتين فى أوربا. كما أن اتجاه الحكومة الملكية لفرض سيادتها على كافة الطوائف داخل المملكة كان يتعارض مع مزاعم البابوية عن سلطتها على الكنائس الاقليمية وسلطتها الأخلاقية على المجتمع. وكانت التوفيقات وعمليات التقارب قد فشلت كوسائل لحل هذه المنازعات، واشتبكت انجلترا وفرنسا فى العقد الأخير من القرن الثالث عشر فى حرب مدمرة أنهت السلام الطويل الذى ساد فى القرن الثالث عشر، واستمرت هذه الحرب بشكل متقطع على مدى مائة وخمسين سنة، وانتهت بفوضى سياسية واجتماعية أدت إلى تدهور كل من المملكتين. وتم إقرار الصراع بين البابوية والملكية الفرنسية باستخدام العنف المادى ضد البابوية نفسها فى العقد الأول من القرن الرابع عشر، وهو أكبر عمل لا أخلاقى فى التاريخ الطويل للعلاقات بين الكنيسة والدولة فى العصور الوسطى.

وهكذا كان زعماء المجتمع الأوربى فى أخريات القرن الثالث عشر يحاولون حل

مشكلاتهم عن طريق أكثر الاجراءات تطرفا وقسوة. وهو موقف من العناد والعنف حكم تصرفات كل من زعماء الكنيسة والدولة إبان تلك الفترة. ولم يكن هو ذلك العنف الناجم عن البداوة. والذى عرفته العصور الوسطى الباكرة، وإنما كان عنفا ناتجا عن تفكك نظام متحضر وانهيار المقاييس الأخلاقية. لم يكن عنف البرابرة، على حد تعبير جاكوب بوركهارت، ولكنه عنف «المتطرفين المرعبين» الذين لا يستطيعون احتمال الحلول التوفيقية وصراعات الحياة المتمدينة، ولا يشفى غليلهم سوى عدوان الوحشية المنظمة.

لقد وصلت ملكية العصور الوسطى إلى قمتها فى إنجلترا وفرنسا أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر، ولم تشهد أوربا ممارسة السلطة السيادية على هذا النحو حتى قبل سنة ١٥٠٠ بقليل. ذلك أن متاعب الملكية الإنجليزية فى السنوات السبعين الأولى من القرن الثالث عشر كانت، إلى حد كبير، نتاجا للقصور فى شخصية الملك، ثم وجدت الحكومة الملكية فى ادوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧)، مرة أخرى، الزعيم الذى يستطيع استغلال السلطة التنظيمية للملكية الإنجليزية، وهى السلطة التى كان الملوك النورمان والانجويون قد أرسوا دعائمها من قبل. كان ادوارد يختلف عن أبيه هنرى الثالث، التقى الطيع، من جميع الوجوه تقريبا. فقد كان تدين الملك الجديد نوعا من التدين الرسمى، الذى ينفع كواجهة مفيدة لسياسة عدوانية، دون أن يشكل عقبة فى سبيل ممارسة هذه السياسة. فقد كان ادوارد صليبيا ذكيا، وجنديا عظيما استثار حماسة جميع الطوائف فى المجتمع الأوربى. كما أنه حقق إنتصارا عظيما حين أخضع ويلز للمرة الأولى تماما للتاج الإنجليزى، وحاول غزو اسكتلندة، وعلى الرغم من أن هذه المحاولة حققت قدرًا أقل من النجاح، فإنها زادت من شهرة ادوارد كجندى.

كان ادوارد قد وعى تماما ذلك الدرس البائس الذى تعلمه من عجز أبيه عن السيطرة على البارونات والمجتمع فى مملكته. وبدلا من العودة إلى الممارسات الاعتباطية التى شهدها عصر الملك جون، فإنه عقد العزم على الإفادة من التجارب الدستورية التى قام بها البارونات المتمردون لاحكام سيطرتهم على الإدارة الملكية، ولكنه كان يهدف إلى استخدام هذه الإبتكارات التنظيمية لزيادة السلطة الملكية بدلا من تحديد نطاقها. فاستمر على نهج سيمون المونتفورتى من حيث الدعوة إلى اجتماع خاص فى البلاط الملكى، يتم فيه عقد اجتماع كبير للأعيان بحضور ممثلين عن فرسان المقاطعات وعن البورجوازيين. هذه المناسبات الخاصة عرفت باسم

البرلمانات، وعند نهاية حكمه كانت هذه الاجتماعات تستغل كثيرا، وبنجاح كبير، لدرجة جعلت منها نظاما ملكيا لا غنى عنه - فالملك يحتفظ ببلاطه من خلال اجتماعات البرلمان.

وكانت وظيفة برلمان ادوارد الأول ذات جوانب أربعة: قضائية، وتشريعية، ومالية، ودعائية. فمن الناحية الرسمية كان هو المحكمة العليا، وبذلك كان هو أعلى هيئة قضائية فى المملكة، حيث يمكن نظر القضايا الكبرى بين الملك والأعيان وكبار السادة، وحيث يمكن للفرسان والبورجوازيين تقديم الإلتماسات بدلا عن الشكاوى. ويمكن أن يكون البرلمان تعبيرا عن إرادة أهل المملكة باعتباره مؤسسة تضم ممثلين عن كل الطبقات فى المملكة. ومن ثم، كان يمكن استغلاله، وفقا للنظرية السياسية والقانونية فى الميثاق الأعظم Magna Carta فى سبيل الحصول على الموافقة على التغييرات فى القانون العام. وفى سلسلة من التشريعات البرلمانية العظيمة قضى ادوارد على كثير من مظاهر الفوضى، وملأ كثيرا من الثغرات فى القانون العام، الذى عانى من قلة اهتمام الملكية خلال العهد السابق. كذلك إستغل ادوارد البرلمان فى الحصول على الحقوق الملكية؛ مثل الرسوم الجمركية، والضرائب المفروضة على البورجوازيين، التى كانت تتم بعد الموافقة البرلمانية. وكان من الأسهل كثيرا فرض ضريبة سبق أن حازت على موافقة ممثلى الأمة، ولاسيما لأن جباة الضرائب كانوا فى معظمهم من فرسان المقاطعات الذين لا يتلقون أجورا ولم يكن من السهل إستمالتهم لتنفيذ سياسة ملكية لا يوافقون هم أنفسهم عليها. وربما كانت الوظيفة الأخيرة للبرلمان، فى نظر ادوارد هى أهم وظائفه. إذ كانت تيسر السبيل للاعلام عن السياسة الملكية وتتيح لوزراء الملك أن يخطبوا فى السادة الروحيين والعلمانيين، وممثلى الفرسان والبورجوازيين بل وصغار رجال الكنيسة، الذين كانوا يجتمعون من حين لآخر، حول جدارة وصلاحية المسار المقترح للعمل الملكى. ومع تسعينيات القرن الثالث عشر كان ادوارد قد جعل من نفسه أقوى ملك إنجليزى منذ هنرى الثانى. فقد استطاع تقليم سلطة البارونات بتشريع برلمانى يطلب منهم إيضاح المبرر الذى يبرر لهم حق الإحتفاظ بالسلطة الاقطاعية الخاصة، وهو أمر كانوا يجدون صعوبة بالغة فى إثباته أمام المحاكم.

واعادة تثبيت الزعامة الملكية فى انجلترا على يد ادوارد هو الذى أتاح الموارد اللازمة لخوض الحرب ضد فرنسا سنة ١٢٩٤م. وقد نشبت هذه الحرب بسبب مزاعم كل من الملكية الانجليزية والملكية الفرنسية حول كونتية الفلاندرز الغنية،

ولكن ادوارد دافع عن سياسته أمام البرلمان على أساس أن الملك الفرنسى عدو للثقافة الانجليزية. وكان هذا الزعم يحمل قدرًا من المبالغة لأن الملك الانجليزى والأمراء كانوا عادة يتحدثون الفرنسية، بيد أن هذا الزعم يشى بأن ادوارد كان يرى فى نفسه ملكا وطنيا.

ورحبت الحكومة الفرنسية بالتحدى الذى طرحه الملك الانجليزى. فقد كان الفرنسيون يأملون فى انتزاع آخر الممتلكات الانجليزية فى القارة الأوربية، فى مقاطعة جاسكونى Gascony، وبهذا يستكملون توسع الدولة الفرنسية إلى ما يمكن اعتباره الحدود الطبيعية للملكة. ذلك أن شمبانى ونافار كانتا قد صارتا من أملاك التاج الفرنسى نتيجة لزواج تحالف، كما كانت ليون وغيرها من المدن المستقلة فى اقليم الراين قد ضمت بموجب ذريعة قانونية من تلك التى برع فيها الأداريون الملكيون. وكان فيليب الثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٥)، ابن سان لويس، رجلا خامل الذكر ترك الحكومة بأيدى وزرائه الرئيسيين، وسمح لهم بمواصلة الأجراءات التعسفية التى كان لويس التاسع نفسه يعارضها. واستمرت عملية إحلال مؤسسات التاج المالية والقانونية الشاملة محل الاختصاصات الاقطاعية، والاسقفية دونما توقف. وكان أى سيد اقطاعى أو هيئة تقاوم الأرادة الملكية تتعرض للاضطهاد والملاحقة حتى لا يكون هناك من سبيل سوى الاستسلام. ولم تكن الحكومة الملكية قادرة على التغلب على النزعات الأقليمية لدى الأمراء الفرنسيين، مما كانت نتيجته عدم استطاعتها الحصول على الموافقة على الضرائب فى مجلس واحد، كما كان الحال فى انجلترا، وحتى عندما اجتمعت الهيئة العامة Estates General فى سنة ١٠٣٢م للمرة الأولى، كان ذلك لأغراض دعائية خالصة، ولم تكن لهذه الهيئة أية وظيفة من وظائف البرلمان الانجليزى. وعلى الرغم من أن المملكة الفرنسية كانت أغنى وأكثر سكانا من انجلترا، فإن الحكومة الكابية لم تكن تستطيع أن تجبى ضرائب كاملة وسريعة مثلما كان متاحا للملك الانجليزى الذى يستغل البرلمان لفرض الضرائب على المملكة. ولكن الحصول على الموافقة من خلال مجالس الأمراء الأقليمية، والمفاوضات مع حكام المدن، كانت توفر للملك الفرنسى من المال ما يكفى لكى يجعله أغنى ملوك أوربا. فضلا عن أن الخزانة الفرنسية كانت تستطيع أن تحصل على نصيب من الضرائب البابوية المفروضة على الأكليروس بحجة أن هذه الأموال ينبغى أن تستخدم للأغراض الصليبية فقط.

كانت للسلطة الهائلة التى تمتعت بها الملكية الفرنسية عند ارتقاء فيليب الرابع

(١٢٨٥ - ١٣١٤) العرش تأثير مفسد على العاملين فى الجهاز البيروقراطى الملكى، خاصة الوزراء الرئيسيين للتاج. فقد كان أولئك رجالا ذوى أصول اجتماعية متواضعة، من أقاليم الفرسان أو من المناطق البورجوازية، وشقوا طريقهم فى الحياة بفضل معرفتهم القانونية ومقدرتهم الأدارية بعد نضال مرير فى مطلع حياتهم. والموارد الهائلة التى كانوا يتحكمون فيها باسم الملك، وقدرتهم اللا محدودة على تدمير من هم أرقى منهم اجتماعيا، جعلت منهم أوغادا متغطرسين بلا مبادىء. ومنذ عهد فيليب أوغسطس اشتهرت البيروقراطية الفرنسية بمواقفها الصعبة، وكان ذلك أمرًا ضروريا لكى تتوحد البلاد حقا تحت حكم التاج. ولكن جنون العظمة عند وزراء فيلب الرابع كان شيئا جديدًا. فإلى جانب القسوة والمراوغة، كانوا يتصفون كذلك بالافتراء، والابتزاز، والاغتصاب. فقد اكتشفت حكومة فرنسا فى أواخر القرن الثالث عشر أسلوب «الكذبة الكبرى»؛ وهو ما يعنى أنه كلما كان الاتهام خياليا كلما كان من السهل تدمير الخصوم العاجزين. وتعلمت هذه الحكومة كيف يمكن تحويل الأجراءات القانونية إلى مؤسسة استبدادية حصينة. إذ كانت الأدارة الملكية تتصرف دائما ضد ضحاياها العاجزين فى إطار شكلى من الرسميات القانونية؛ لأنها كانت قد اكتشفت أن مجرد استغلال الحكومة لواجهة المؤسسات القانونية فى توجيه أكثر الاتهامات كذبا وزورا كفيل بأن يغير الحقيقة ويلونها فى عقول العامة المظلمة. وليس من السهل أن نحدد الدور الذى لعبه الملك فى هذا كله - فإلى أى مدى كان هو يوجه فعلا هذه السياسة الشريرة، أم أنه كان مجرد ضحية مكر وزرائه وخداعهم؟ ويبدو أن الاحتمال الأخير هو الأرجح. فقد كان فيليب تقيا شجاعا كشخص، ولكنه كان أيضا صامتا غبيا مما يجعل منه أفضل واجهة يمكن للبيروقراطية أن تنفذ خططها فى سترها. وكان وزراؤه وحوشا وغاية فى الاستهتار، ولكن يبدو أن الملك كان يصدق أكاذيبهم الكبيرة بالفعل. ولم تكن ثمة صعوبات تواجههم فى اقناعه بشرعية هجماتهم على من يقف فى طريقهم، بما فى ذلك نائب المسيح نفسه.

بعد موت سان لويس وجدت البابوية نفسها فى مواجهة صعوبات تتصاعد باستمرار. ذلك أن مؤسساتها القانونية والمالية كانت محل الانتقادات من سائر أنحاء أوربا، بما فى ذلك رجال الكنيسة الذين وجدوا أنفسهم تحت وطأة الضرائب الباهظة التى فرضتها عليهم البابوية، كما أنهم غالبا ما كانوا يلاقون الاضطهاد فى المحاكم البابوية. كان الكرادلة متعلمين وإداريين على مستوى طيب، ولكنهم استحقوا سمعتهم السيئة بسبب المحسوبية والرشوة. إذ أن الأجراءات المتطرفة التى أتخذت

ضد الهوهنشتاوفن أزعجت أصحاب العقليات الحساسة الذين كانت تراودهم الشكوك حول سلوك من يحتفظ بمفاتيح السموات (البابا) والذى يستخدم أساليب تناسب الطغاة الايطاليين المشاغبين. فقد كان الفرنسسكان الروحانيون قد غرسوا بذور الفوضى حين قالوا أن الكنيسة والبابوية فشلت فى أن تسير على مبدأ الفقر الحوارى. ومرة أخرى ظهرت نزعة معاداة رجال الكنيسة، ولكنها كانت فى هذه المرة موجهة بشكل مباشر ضد «الذئب» البابوى بشكل جعل من هذه النزعة العنصر السائد فى الأدب الغربى آنذاك. فضلا عن أنه كانت هناك مشكلات خطيرة داخل البلاط البابوى نفسه. فمنذ القرن العاشر، كان العرش البابوى محل نزاع بين الأسر الرومانية الطموحة على فترات متقطعة؛ إذ كانت هذه الأسر ترى فى العباءة البابوية وقبعة الكردينال وسيلة للحصول على ثروات ملكية جديدة. وبالاضافة إلى الأحزاب التى ألفتها العائلات الأرستقراطية الرومانية البارزة داخل هيئة الكرادلة، كانت هناك أيضا مجموعة من الكرادلة الفرنسيين الذين تحمسوا لمطالب الملكية الفرنسية والحكم الأنجوى فى جنوب إيطاليا. وفى ظل هذه الظروف، كانت تنتج عن كل انتخابات بابوية أزمة صغيرة وإشاعات فاضحة. وفى أوائل الثمانينيات من القرن الثالث عشر كانت البابوية فى وضع تسهل مهاجمته للغاية إذا ما ظهرت أية مشكلة كبرى فى أوربا يمكن أن تؤثر على مصالحها وتختبر عزم البلاط البابوى. وقد ثارت مشكلة من هذا النوع نجمت عن سلسلة غريبة وغامضة من الأحداث فى صقلية، وظهر عجز البابوية من خلال ردود فعلها تجاه هذه الأزمة.

كان حكم أنجو فى صقلية وجنوب إيطاليا كريها فى نفوس المواطنين منذ البادية. فقد كان شارل أنجو، بخلاف الحكام الهوهنشتاوفن السابقين، لا يستطيع أن يزعم أنه من سلالة البيت النورمانى الأصلى، على الرغم من أنه تولى حكم هذه المناطق الغنية بترخيص من البابوية. ولم تكن معاملته لشعب صقلية وجنوب ايطاليا أفضل من معاملة نبلاء شمال فرنسا لأهالى لانجدوك فى مطلع هذا القرن. إذ كان ذلك مجرد اغتصاب جديد للأرض على يد النبلاء الفرنسيين الذين لم يكن لديهم أدنى قدر من الأهتمام بصالح الشعب الذى قهروه وداسوا كرامته. وكان الحكم الأنجوى فى جنوب ايطاليا علامة البداية فى رحلة الأفول الطويلة التى قطعها هذا الأقليم،الذى كان مزدهرًا من قبل ليسقط فى هوة البؤس والفقر. وربما لم تكن كراهية الايطاليين لتظهر لو لم يكشفوا عن كراهيتهم لطمع شارك أنجو فى امتلاك القسطنطينية. ففى سنة ١٢٦١، كانت المملكة اللاتينية فى القسطنطينية، والتى أقامتها

الحملة الصليبية الرابعة، قد قضت نحبها، وأستعاد أمراء باليولوجوس عرش القسطنطينية. وكانت موارد الدولة البيزنطية المحياة من جديد ضئيلة، بحيث لم يستطيع البيزنطيون كلهم أن يصمدوا فى وجه الأتراك حتى استطاع المسلمون فى نهاية الأمر أن يستولوا المدينة الذهبية النائمة على ضفاف البسفور سنة ١٤٥٣م. وهكذا باءت بالفشل الخطة التى كان انوسنت الثالث قد وضعها لاعادة توحيد الكنيستين البيزنطية والرومانية نتيجة للغزو اللاتينى للقسطنطينية. وعلى مدى عشرين سنة أخرى اشترى الحاكم البيزنطى الحماية من الهجوم المضاد، بالموافقة على اتحاد شكلى بين الكنيستين. ولكن فى سنة ١٢٨١م أدان شارل أنجو سلوك الحاكم البيزنطى التظاهرى ووضع خطة لمهاجمة القسطنطينية. كان البيزنطيون قد نسوا كيف يحاربون، ولكنهم لم يكونوا قد نسوا كيف يتآمرون. ولعب الجواسيس البيزنطيون والذهب البيزنطى دورهم فى توجيه الكراهية المريرة التى كانت تضطرم فى وجدان أهل صقلية، الذين هبوا سنة ١٢٨٢ ليذبحوا الحامية الفرنسية فى تمرد وحشى عُرِف باسم الصلوات المسائية الصقلية Sicilian Vespers والتفاصيل الدقيقة لحركة الصلوات المسائية الصقلية Sicilian Vespers[٣] حيرت الباحثين المؤرخين؛ إذ

---

(٣) عرفت هذه الحركة الثورية المضادة للفرنسيين فى صقلية بهذا الاسم لأنها اندلعت فى يوم الاثنين عيد الفصح سنة ١٢٨٢، وبمجرد أنه دقت الكنائس أجراسها تعلن عن بدء صلوات المساء. وبشروق شمس الصباح كان كل الفرنسيين الذين لم يهربوا من الجزيرة قد لقوا حتفهم. وإنتشر التمرد الذى عرف باسم صلوات المساء الصقلية فى سائر أنحاء الجزيرة. وكان هذا التمرد فى جانب منه نتيجة للغزو الفرنسى للجزيرة فى سنة ١٢٦٦ حيث تم القضاء على حكم أسرة الهوهنشتاوفن. إذ كان يتزعم حركة التمرد مستشارو الملك مانفرد ووزراؤه السابقون الذين ظلوا على ولائهم لابنته كونستاس زوجة بطرس الثانى ملك أرغونة الذى قدم مساعدته لأهل صقلية ضد الفرنسيين. ومن ناحية أخرى كانت للإجراءات القهرية التى إتخذها شارل آنجو ضد أهل الجزيرة والضرائب الباهظة التى فرضها عليهم، فضلا عن محاباته للتجار القادمين من بلاده، واعتبار صقلية مجرد مورد للدخل - كان لكل هذا أثره فى غضب الصقليين. وإنتهى التمرد بسقوط حكومة الأنجويين فى الجزيرة على حين فشلت جهود شارل فى سحق الحركة على الرغم من أنه كان يلقى التأييد والدعم من البابوية، ومن فيليب الثالث ملك فرنسا. وتم إعلان بطرس الثانى، ملك أرغونة، ملكا على صقلية بشرط أن يحكمها وفقا لقوانينها الخاصة، وأن يعامل أهلها باعتبارهم سكان مملكة قائمة بذاتها.

انظر:

Robert S. Hoyt/Stanley Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp. 488-ff; S. Runciman, The Sicilian Vespers (1957).

تجلت العبقرية التآمرية لأهل صقلية للمرة الأولى فى سنة ١٢٨٢. ولكن من الواضح أن البيزنطيين كانت لهم الزعامة فى اشعال نار التمرد. وعلى أية حال فإن الصقليين أعلنوا ولاءهم للملك أرغونة الذى كانت زوجته هى ابنة مانفرد، الابن غير الشرعى لفردريك الثانى وآخر حاكم من الهوهنشتاوفن، وقبل الملك الأسبانى صقلية، وبعد أن نزل على أرض الجزيرة منع شارل أنجو من إعادة فتحها.

كان على العرش البابوى فى الوقت الذى حدثت فيه «الصلوات المسائية الصقلية» رجل فرنسى كان أداة بيد شارل آنجو. فلم يكتف بتكريس موارد البابوية المالية لمساندة شارل فى حربه الاستردادية، ولكنه أعلن أن عرش أرغونة يعتبر شاغرا، وأعلن عن شن حملة صليبية ضد الجالس على هذا العرش. ولم يكن هناك أى مبرر أخلاقى أو دينى لهذا الإجراء المتطرف. فقد كان تجريد الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين الهراطقة شيئا (بل إن الحملة الصليبية ضد الهوهنشتاوفن كانت على أساس معقول) ولكن تجريد حملة صليبية ضد أرغونة كانت شيئا مختلفا. فقد كانت حملة صليبية سياسية تماما، وكشفت عن مدى هوان المثال الصليبى. إذ كان ملوك أرغونة دائما فى طليعة الجنود المسيحيين؛ وها هو الحاكم الأرغونى يجد نفسه الآن يعامل كما لو كان عدوا للكنيسة ولأسباب سياسية خالصة. ولكى يضمن الاستجابة الفرنسية للحملة الصليبية خلع البابا لقب ملك أرغونة على ابن فيليب الثالث، بل أنه قدم للملك الفرنسى الدخل الذى توفر للكنيسة من الضريبة الصليبية التى فرضت على الأكليروس الفرنسى. وتقدم فيليب الثالث صوب أرغونة، على حين كان شارل يحارب الصقليين والأسبان لكى يستعيد صقلية. وقد لقى الفرنسيون هزيمة مخزية فى كلتى الجبهتين بسبب قوة الأساطيل الصقلية والأسبانية، والمرض الذى تفشى فى صفوف جيش فيليب، فضلا عن شجاعة الأسبان ومهارتهم العسكرية.

كانت الحملة الصليبية الثانية ضد أرغونة هى الفصل الثانى فى المأساة التى أدت إلى تدمير بابوية العصور الوسطى. فعلى مدى السنوات العشرين التالية أرهقت البابوية مواردها فى جهد يائس لاستعادة صقلية لحليفها الأنجوى. ثم كان عليها فى النهاية أن تعترف بانقسام جنوب إيطاليا إلى مملكتين هما صقلية الأرغونية، ونابلى الأنجوية. وكان فيليب الثالث قد مات وهو فى طريق العودة من حملته الصليبية الخائبة ضد أرغونة، وقرر وزراء ابنه الذين كدرتهم الهزيمة الأولى للجيوش الفرنسية فى القرن الثالث عشر أن يجعلوا من البابوية كبش الفداء. وزعموا أن البلاط

البابوى لم يلتزم بتعهداته فى تأييد المشروع الفرنسى، وأقنعوا فيليب الرابع بحقيقة هذه الافتراءات. وبعد سنة ١٢٨٥ صار موقف الملكية الفرنسية تجاه البابوية أكثر قسوة وأشد عنادا. ومن الواضح أن الوزراء الملكيين كانوا ينتظرون فقط حتى تسنح الفرصة المناسبة لسحق البابوية مثلما أخضعوا كل شىء فى بلادهم.

ولم يكن عليهم أن ينتظروا طويلا. ذلك أن الخصومات والمنازعات التى نشبت داخل هيئة الكرادلة بين العائلات الارستقراطية الرومانية جعلت من كل انتخاب بابوى أمرا صعبا ومحفوفا بالمخاطر والفضائح. وأخيرا فى سنة ١٢٩٢، عندما كان العرش البابوى شاغرا، قام كل من الفرقاء فى هيئة الكرادلة بإلغاء الفريق الآخر، ولم يستطع أى مرشح أن يحصل على ثلثى الأصوات اللازمة لفوزه. وعلى مدى عامين كان العالم المسيحى ينظر بهلع إلى الكرادلة الذين ظلوا يتشاجرون ويحيكون الدسائس حول عرش القديس بطرس الذى كان مايزال شاغرا. وتم التوصل إلى حل توفيقى مؤقت فى سنة ١٢٩٤ عندما وافق جميع الفرقاء على انتخاب البابا كلستين الخامس Celestine V الذى كان ناسكا إيطاليا مشهورا وزعيما روحيا ذائع الصيت. وقد ارتبك كلستين تماما بواجبات منصبه، وبعد شهور قلائل من الفوضى فى البلاط البابوى هجر العرش البابوى. وكان «رفض كلستين العظيم»، على حد تعبير دانتى، فضيحة مدوية تسببت فى نزاع مرير، لأنه لم يحدث أبدا أن تنازل البابا عن عرشه، وزعم كثيرون من المخلصين أن وريث القديس بطرس لا يمكنه الاستقالة من منصبه لأن البابا تختاره العناية الالهية. وقال كلستين أن صوتا ملائكيا طلب منه التنازل، على الرغم من الشائعات التى انتشرت لتقول أن هذه الرسالة إنما جاءت فى الحقيقة من الكردينال بندكت جايتانى Benedict Gaetani ، زعيم إحدى الفرق المتنازعة فى هيئة الكرادلة، عن طريق أنبوب خفى. وتوقفت هذه الشائعات عندما انتخب جايتانى للعرش البابوى تحت اسم البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣)، وعندما توفى كلستين بعد ذلك بقليل، زعموا أنه مات مسموما بأوامر من جايتانى.

ولم يكن هناك شىء يفوق الفضيحة التى ارتبطت ببابوية بونيفاس الثامن سوى انتهاك حرمة البابوية بالشكل الذى أودى بها. ذلك أن البابوية فى سنة ١٢٩٤ م كانت فى وضع مكشوف للغاية. إذ كان سلطانها على العالم المسيحى قد تضاءل إلى حد كبير، كما كانت الملكيات فى شمال أوروبا قد تطورت إلى النقطة التى تجعل أى خلاف مع البابوية يترجم فى الحال إلى عداء وعنف ضد روما. ولكن بونيفاس كان

مفتونا بنظرية سمو السلطة البابوية وبمؤسسات الحكم الأوتوقراطي البابوي بحيث أنه لم يستطع أن يواجه حقائق الموقف ويكبح جماح نفسه عن التصرف الأخرق. وكان متطرفا عديم المسئولية مثل أي وزير من وزراء الملك الفرنسي. كما كان قانونيا ماهرا، وإداريا ممتازا، وصادقا في إخلاصه للكنيسة. ولم يكن مفهومه عن المنصب البابوي يختلف بشكل أساسي عن مفهوم إنوسنت الثالث؛ ولكنه كان يفتقر إلى مهارة إنوسنت السياسية وأسلوبه الدبلوماسي، والواقع أنه واجه موقفا محفوفا بالمخاطر التي تهددت البابوية، وكان هذا الموقف أخطر من الموقف الذي واجهه إنوسنت الثالث. ولم ينل بونيفاس الثامن سمعة طيبة، سواء في زمانه، أو بعد ذلك ولكن بعض الانتقادات التي وجهت إليه كانت انتقادات ظالمة. فليست غلطته أن الحكومة الفرنسية كانت تحت سيطرة رجال مخادعين غلاظ الأكباد، فقد كان تجردهم الأخلاقي أمرا جديدا على العالم المسيحي. ولكنه أخطأ لأنه لم يعترف بوجود هذا الوضع الجديد وفشله في تعديل السياسة البابوية بحيث تتناسب معه. وبدلا من ذلك اندفع بلا روية، وأدعى للسلطة البابوية أكثر الدعاوى تطرفا (على الرغم من أنها لم تكن هي المرة الأولى في هذا الصدد)، فلقي هزيمة مروعة.

ففي سنة ١٢٩٤ كانت الحرب الحتمية بين المملكتين التوسعيتين في انجلترا وفرنسا قد بدأت ولم تكن قد نشبت حرب كبرى في أوربا منذ ثمانين عاما، وسرعان ما اكتشفت كلتا الحكومتين أنهما أخطأت في تقدير النفقات العسكرية، واستنزفت الحرب مواردهما بشكل قاس. وتطلعت كل من الحكومتين بحثا عن وسائل لزيادة الدخل الملكي. وكان المورد الأكثر وضوحا هو فرض الضرائب على رجال الكنيسة، وهو أمر كانت له سوابق مريبة في مناسبات عديدة حين كانت الكنيسة تعطي للدولة نصيبا كبيرا من الضرائب الصليبية. وادعت الحكومتان الملكيتان في انجلترا وفرنسا أن هذا يعطيهما الحق في فرض الضرائب على الاكليروس لأي غرض حربي، وكانت ثمة حجة معقولة تدعم هذا الرأي. فقد بدا الفرق ضئيلا بين فرض الضرائب على رجال الكنيسة الفرنسيين من أجل الحرب ضد أرغونة من ناحية، ومطالبتهم بتمويل الحرب ضد انجلترا من ناحية أخرى. أما الفرق الكبير، فكان يتمثل في أن البابا رفض الترخيص بالضريبة الجديدة واعتبرها خروجا صارخا على القانون الكنسي. ونشر المرسوم البابوي المعروف باسم Cler-icis Laicos[٤]، الذي يقضي بعدم فرض أية ضرائب على رجال الكنيسة من قبل

(٤) أصدر بونيفاس الثامن هذا المرسوم في ٢٥ فبراير سنة ١٢٩٦ لكي يحمي رجال =

العلمانيين دون إذن بابوى، وإلا كان العقاب هو الحرمان. وقد اتسم المرسوم البابوى بنغمته الحربية العنيدة. فالجملة الافتتاحية فيه تؤكد على أن «العلمانيين كانوا أعداء لرجال الكنيسة منذ أقدم العصور»، وهى أكذوبة واضحة بالنظر إلى الحماسة الهائلة والاخلاص الذى أظهره العلمانيون، وكانوا ما يزالون يظهرونه، نحو الكثيرين من رجال الكنيسة. وكان لافتقار بونيفاس للقدرة على ضبط النفس والاعتدال أثره فى رسم الحدود بين السلطة البابوية والسيادة الملكية، وكان رد ملكى انجلترا وفرنسا على التحدى الذى طرحه مماثلا فى عنفه. فقد أثار ادوارد الأول مشاعر الرعب والهلع فى قلوب الاكليروس الانجليزى حين سحب منهم الحماية التى كان يوفرها لهم القانون العام، وأظهر وزراء فيليب الرابع نذالتهم بحملة شاملة من المضايقات والسباب من النوع الذى كانوا خبراء فيه. كما طردوا المصرفيين الايطاليين من باريس وفرنسا ومنعوا تصدير أية أموال خارج المملكة لكى يحرموا البابوية من شطر كبير من مواردها. وأصدروا وابلا من المنشورات ضد بونيفاس يؤكدون السلطة السيادية للملك على رعاياه وعلى وجوب التزام رجال الكنيسة بالمشاركة فى الدفاع عن المملكة. وتم إرغام البطريركية الفرنسية على إخبار البابا بأن رجال الكنيسة سوف يعتبرون أعداء الدولة إذا لم يدفعوا الضرائب لتمويل الحرب الوطنية. وارتبك بونيفاس وارتعدت فرائصه، وسرعان ما استسلم واعترف بأن ملك فرنسا له الحق فى فرض الضرائب على رجال الكنيسة فى مملكته، وكان معنى هذا التسليم بحق جميع الحكام العلمانيين فى فرض الضرائب من أجل الدفاع عن ممالكهم. كان هذا اعترافا صريحا من البابوية بسيادة سلطة الدولة على الكنيسة الوطنية. وكانت تلك هى غلطة بونيفاس الثانية، لأنها كشفت لوزراء شارل الرابع أنه يمكن إجبار البابوية على الخضوع بسهولة، مما حفزهم على القيام بإجراءات أكثر تطرفا.

وحانت الفرصة للعنف الجديد فى سنة ١٣٠١. فقد كانت سنة ١٣٠٠ مناسبة عيد كبير للكنيسة. وكان آلاف من الحجاج قد شقوا طريقهم صوب روما وهللوا للبابا

= الكنيسة فى انجلترا وفرنسا ضد الاستغلال المالى من جانب السلطات العلمانية. ويقضى المرسوم بمنع الاكليروس من إعطاء الدخل الكنيسى إلى الحاكم العلمانى دون الحصول على إذن من البابوية بذلك، كما يحرم على العلمانيين قبول هذا الدخل ونظرا لأن لهجته كانت قاسية وعنيفة فقد أثارت من فيليب الرابع ملك فرنسا وادوارد الأول ملك انجلترا. وبذلك كانت مقدمة لصراع عنيف طويل المدى. (المترجم)

فى غمرة المهرجانات الدينية. هذه المظاهرات أعادت لبونيفاس ثقته وغطرسته. فإذا كان شعب أوربا يدين بمثل هذا الولاء لنائب المسيح. فما الذى يدعوه للخوف من الملوك؟ وكان على استعداد للدخول فى صراع جديد ضد الملكية الفرنسية، على ألا يستسلم هذه المرة. وفى الوقت نفسه كانت الادارة الملكية قد وجدت أن أحد أساقفة لا نجدوك شخص متعب وصعب المراس؛ فقد كان هذا الأسقف جنوبيا متعصبا يكره الشماليين لأنهم غزوا بلاده. وقرر وزراء فيليب أن يجعلوا من هذا الأسقف المتمرد عبرة لمن يعتبر. وباستخدام أساليبهم المعتادة من الكذب والافتراء والحيل والذرائع القانونية، تسببوا فى القبض عليه بتهمة الخيانة، وطلبوا من البابا، بصفاتهم المستهترة المعتادة، عزل سجينهم من منصبه الأسقفى حتى يمكن عقابه على جريمته الملفقة. وردّ بونيفاس على الاستفزاز بنفس الطريقة المتطرفة. إذ أوقف تنازله السابق لملك فرنسا بفرض الضرائب على رجال الكنيسة، ووجه انتقادات قاسية إلى فيليب بسبب النهج اللا أخلاقى الذى تنتهجه إدارته، ثم دعا إلى عقد مجمع لرجال الكنيسة الفرنسيين فى روما لاصلاح الكنيسة فى مملكة فيليب. وفى سنة ١٣٠٢ أصدر مرسوما بابويا آخر لارساء السلطة الكنسية عرف باسم Unam Sanctam (٥) يزعم فيه أن كلا من السيف الروحى والسيف الزمنى بيد نائب المسيح على الأرض، وإنه إذا كان هناك ملك لا يستخدم السيف المدنى الذى أعير إياه على نحو صحيح يمكن للبابا أن يخلعه عن عرشه. وخلص من هذا إلى تأكيد وتوطيد السلطة البابوية: «ونحن نعلن، ونصرح، ونحدد أن الخضوع لبابا روما ضرورى جدا لخلاص كل مخلوق بشرى».

وقيل أن أحد وزراء فيليب الجميل علق عند قراءة مرسوم بونيفاس الأخير بقوله: «سيف سيدى من الصلب، وسيف البابا من نافلة القول». ويبدو أن لهجة

---

(٥) صدر هذا المرسوم البابوى سنة ١٣٠٢ لتأكيد تفوق السلطة البابوية، وقد صدر بمناسبة الصراع بين بونيفاس الثامن وفيليب الرابع حول فرض الضرائب على رجال الكنيسة، وولاء الكنسيين فى فرنسا. والمرسوم عبارة عن تجميع لعملية استمرت مائتى سنة، وهو يجمع كل الحجج والقرائن التى تؤيد السمو البابوى منذ حركة الاصلاح الجريجورى فى منتصف القرن الحادى عشر. ويؤكد المرسوم على وضع البابا باعتباره زعيم الكنيسة وواجبه فى حماية مصلحة الكنيسة وتوجيه الشئون العلمانية فى خدمة الهدف الكنسى «فمن الضرورى أن يخضع كل مخلوق بشرى لبابا روما حتى يحصل على الخلاص لروحه»

انظر : T.S.R. Boase, Boniface VIII (1933); H. Bettenson, (ed.), Documents of the Christian Church, "1943".

المرسوم البابوى العنيفة قد صدمت الملك نفسه، ولكن وزراءه لم يخشوا شيئا. فقد كانت ثقتهم كاملة فى فعالية أساليبهم الاستبدادية التى سحقت العديد من خصوم سلطة الدولة فى غضون العقدين السابقين، فأخذوا يوجهون سلاح الكذبة الكبيرة ضد البابا، وهو سلاح مسموم. كانت القوة الرئيسية فى الادارة الملكية آنذاك متجسدة فى شخص وليم النوجارتى William of Nogaret، الذى كان رجل قانون معاديا لرجال الكنيسة، عنيفا من أهل الجنوب، ويبدو أن تصرفه كان رد فعل تجاه محاكم التفتيش العاملة فى موطنه، فقد كان يتصرف بدافع من الكراهية العمياء للكنيسة. وفى أول اجتماع للهيئة العامة Estates General قرأ قائمة طويلة من الاتهامات الموجهة ضد بونيفاس، واتهمه بكل جريمة ممكنة؛ بداية بالهرطقة والاغتيال حتى انعدام الخلق وممارسة السحر الأسود. وصور البابا على أنه عدو للكنيسة، وأكد أن من واجب «كل ملك مسيحى» بحكم فرنسا أن ينقذ الكنيسة من هذا الوحش. وكان عامة العلمانيين يصدقون أن اتهامات نوجاريه للبابا صحيحة، كما أن رجال الكنيسة سايروا هذه الأكاذيب المختلقة، من ناحية لأنهم ارتبكوا بسبب عنف الاتهامات، ولأنهم كانوا خائفين من ناحية أخرى. وعلى مدى نصف قرن من الزمان تعودت أوربا على اللغة المتطرفة والادانات التى تبادلها كل من الحكام العلمانيين والبابوية، بل تبادلها الكنسيون أنفسهم فيما بينهم. هذا التراث من التهم القاسية زادت من سرعة التصديق حتى بين المخلصين والأذكياء من الناس، كما أن الاستخدام المستمر للسباب والشتائم فى المجادلات والمناقشات ترك أثرا سلبيا على المسار الأخلاقى فى أوربا لدرجة أن الناس صاروا على استعداد لقبول أكثر الاتهامات شذوذا حتى ضد البابا. وحين قال نوجاريه أن دليله على ما أدعاه من أن البابا مهرطق هو ما كان البابا قد أعلنه من قبل عندما صرح بأنه يفضل أن يكون كلبا على أن يكون فرنسيا، مما يشير إلى أنه لم يكن يؤمن بالروح - حين قال نوجاريه هذا أومأ الرجال المخلصون الأمناء برؤوسهم معلنين موافقتهم الأكيدة على هذا.

لقد سِيْقَ بونيفاس إلى الحائط أمام الحكومة الفرنسية؛ ولم يترك له سوى السلاح الأخير فى الترسانة الروحية البابوية. فذهب إلى قصر عائلته فى أناجنى Anagni لكى يجهز مرسوما بابويا بقرار الحرمان وخلع الملك الفرنسى. ولكنه لم يتوقع العنف المادى الذى كانت الحكومة الفرنسية تعده ضده. فقد تم ارسال نوجاريه فى مهمة سرية إلى ايطاليا للقبض على البابا والعودة به إلى فرنسا

لمحاكمته. واستطاع نوجاريه أن يعتقل البابا فى أناجنى بفضل مساعدة الاعداء الشخصيين من النبلاء الايطاليين، وبفضل تعمد بعض الكرادلة لتجاهل الأحداث، ومضى فى طريقه صوب الشمال. ومن الصعب أن نقول إن نوجاريه كان يأمل فى العودة ببونيفاس إلى فرنسا، إذ أن أهل أناجنى وأقارب بونيفاس من النبلاء استطاعوا تحريره وأعادوه إلى روما، حيث مات بعدها مباشرة، حزين الخاطر كسير الفؤاد. والشاعر دانتى، الذى كان قد أدان بونيفاس ورفض الاعتراف بشرعيته، فهم أن الأحداث التى جرت فى أناجنى كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحضارة. فقد قال ان «بيلاطس الجديد» هو الذى سجن المسيح فى شخص نائبه، وتسبب فى موته. وكانت أوربا تنتظر فى شغف لترى الفصل التالى من هذه المأساة المروعة.

كانت الكنيسة آنذاك فى حاجة إلى إنوسنت الثالث أو جريجورى السابع من جديد، ولكنها بدلا من ذلك حصلت على بندكت الحادى عشر؛ وهو راهب دومينيكانى هياب، وقع قرار الحرمان على نوجاريه، ولكنه برأ ساحة فيليب. وعلى امتداد سنة كاملة نشب صراع مرير بين الحزب الموالى للفرنسيين فى هيئة الكرادلة والحزب المعادى لهم. وتم عقد اتفاق وسط أدى إلى انتخاب كبير أساقفة بوردو تحت اسم كليمنت الخامس Clement V (١٣٠٥ - ١٣١٤)، وهو رجل كان يفترض أن يكون تلميذا مخلصا لبونيفاس، ولكنه أقام علاقة سرية مع الادارة الملكية الفرنسية. وعلى أية حال فإنه كان يخشى الملك الفرنسى، كما كان يعانى المرض باستمرار طوال بابويته تقريبا، وربما كان مصابا بالسرطان. وسيكون من الصعب أن نتخيل اختيارا أسوأ من هذا؛ إذ أن كليمنت جعل من مأساة أناجنى كارثة دائمة على البابوية. بل إنه لم يذهب قط إلى روما، وإنما أقام فى مدينة أفينون Avignon الصغيرة التابعة للامبراطورية الألمانية، والتى تقع عبر نهر الرون خارج خط الحدود الفرنسية مباشرة، بحجة الظروف السياسية المضطربة فى الولايات البابوية، مما جعله داخل نطاق النفوذ الملكى الفرنسى تماما. وكان «الأسر البابلى» للبابوية تعجيلا بتدهور هيبة البابوية فى شتى أنحاء أوربا. ذلك أن الحكومة الانجليزية، بصفة خاصة، اعتبرت بابوية أفينون مجرد أداة فى يد الملكية الفرنسية، وكانت تلك هى الحقيقة. وقد شجع هذا على انسحاب الكنيسة الانجليزية من نطاق السيطرة البابوية وزاد من سرعة هذا الانسحاب. ولكن وزراء فيليب لم يقنعوا بهذا الهوان الذى حاق برأس الكنيسة، وهددوا بمحاكمة بونيفاس غيابيا إذا لم يستسلم كليمنت لمطالبهم تماما. وقام البابا المغلوب على أمره بتبرئة نوجاريه وألغى مرسوم

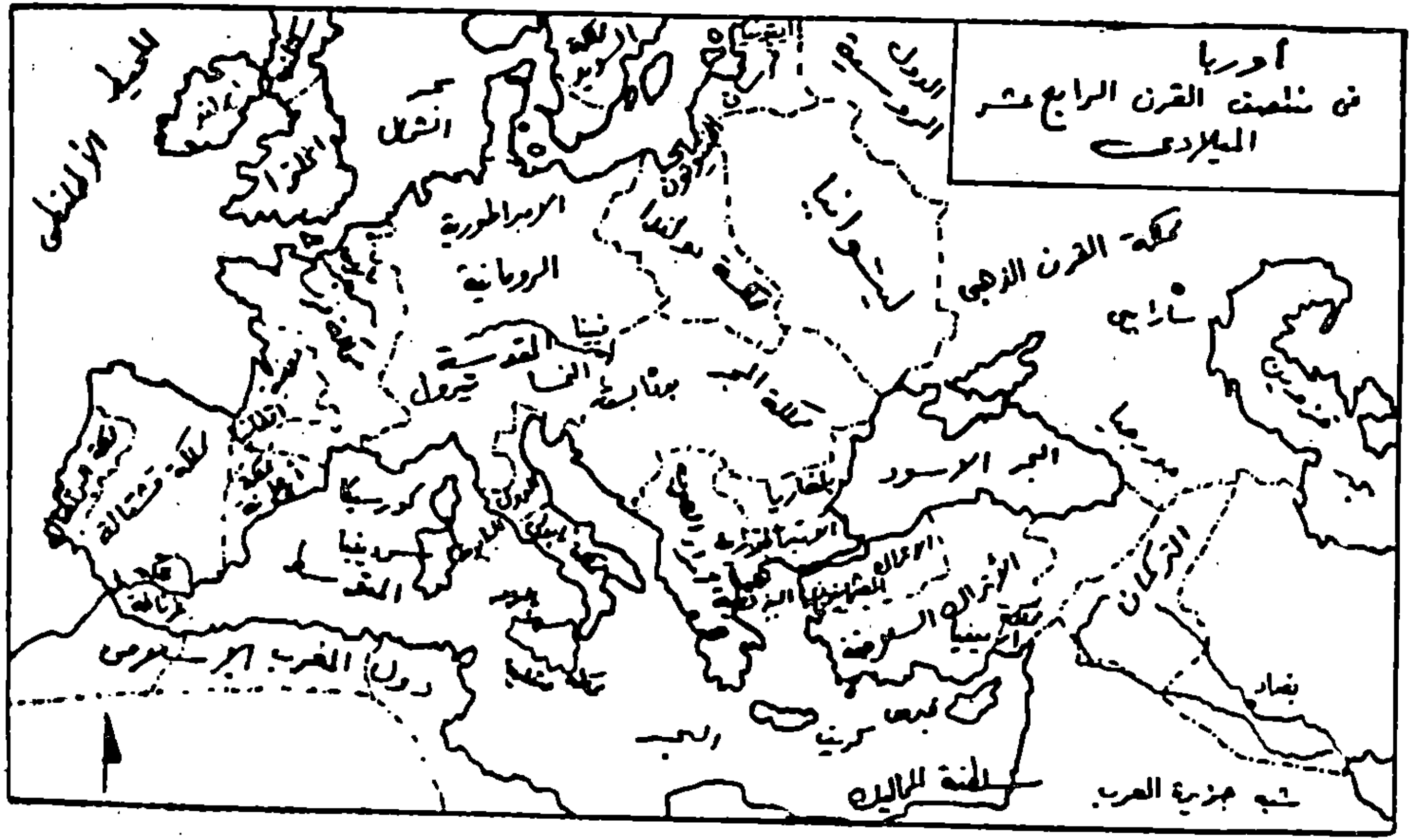
أوروبا
في منتصف القرن الرابع عشر
الميلادي
المحيط الأطلنطي
بحر الشمال
البحر الأسود
مملكة القرن الذهبي
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
مملكة قشتالة
كورسيكا
سردينيا
بلغاريا
التركمان
بغداد
دول المغرب الإسلامي
سلطنة المماليك
شبه جزيرة العرب
قبرص
كريت
البحر المتوسط

السلطة المقدسة الواحدة Unam Sanctum بل وأعاد الكرادلة الذين تواطأوا على اعتقال نوجاريه لبونيفاس إلى مناصبهم. ومضى نوجاريه ومساعدوه، بعد أن تخلصوا من أى تدخل بابوى، فى استخدامهم لأسلحة السباب، والابتزاز، واتخاذ الذرائع القانونية للقضاء على فرسان الداوية فى سبيل الاستيلاء على ودائع بنك الداوية فى باريس لصالح الخزانة الملكية. فاتهموا الداوية بالهرطقة واللواط، واقتنع قضاة محاكم التفتيش الدومينيكان بادانة زعماء الداوية بناء على شهادة بعض شهود الزور. وقام كليمنت الخامس بدوره الصورى فحل جماعة الفرسان الداوية، على حين استولت الخزانة الفرنسية على أكبر بنك فى شمال أوربا من أجل الحصول على مزيد من الموارد لتميل الحرب ضد انجلترا.

وهكذا، عندما أخذت شمس العقد الأول من القرن الرابع عشر تميل نحو الغرب كانت الدولة فى أوربا قد حققت لنفسها وضعا سياديا وأجهزت على بابوية العصور الوسطى. ولم تكن البابوية بقادرة على التصدى لارادة الملوك الفرنسيين والانجليز، الذين كانوا آنذاك يمارسون سلطانهم على الشعب دونما قيود الموافقات الأخلاقية. إلا أن ملوك انجلترا وفرنسا لم ينعموا بسلطتهم المطلقة طويلا. إذ أن ادوارد الأول، ووزراء فيليب الجميل كانوا قد أساءوا حساب مواردهم وبالغوا فى تقديرها. لقد كانت أدوات الاستبداد أمورا جديدة على حضارة العصور الوسطى، ولم يكن الناس قد تعلموا بعد كيف يسيطرون على هذه الأدوات. وتحولت الحرب بين ملوك انجلترا وفرنسا إلى حرب جلبت الدمار على كل من الطرفين. ذلك أن الضرائب الباهظة للغاية التى كان لابد من فرضها على السكان أدت فى النهاية إلى تفشى مشاعر السخط والتمرد. وواجه ادوارد الأول، فى سنى حياته الأخيرة، معارضة قوية من الأمراء الذين اعترضوا بمرارة على محاولاته لفرض ضرائب جديدة أشد وطأة، واكتشف خليفته ادوارد الثانى أن البرلمان يمكن أن يستخدم كوسيلة للحد من السلطة الملكية، مثلما استخدم من قبل لتعزيز هذه السلطة. ففى سنة ١٣١١ انتزع مجلس من البارونات حق ادارة المملكة، كما كان الأمراء قد فعلوا من قبل فى عهد هنرى الثالث. وفى سنة ١٣١٥، أى فى السنة التى أعقبت وفاة فيليب الجميل أجبرت مجالس النبلاء الساخطين فى الأقاليم الفرنسية الملك الجديد على اصدار مواثيق تؤكد امتيازاتهم الاقطاعية. وتاريخ كل من انجلترا وفرنسا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر لا يتميز باستمرار نمو السلطة الملكية وإنما باعادة تأكيد الامتيازات الارستقراطية، واحياء زعامة كبار النبلاء فى المجتمع.

فقد تعلمت الطبقة الارستقراطية من الملكية فى أواخر القرن الثالث عشر مواقفها العنيفة وأساليبها القاسية واستخدمتها ضد السلطة الملكية. ولأن الزعماء الملكيين فى المجتمع كانوا قد هدموا المستويات الأخلاقية، فقد شاعت التصرفات المخادعة الأنانية فى المجتمع آنذاك. لقد كانت الدولة الأوربية فى القرن الثالث عشر قد تمادت كثيرًا بانتهاكها لكل مستويات التحضر والأمانة بحيث أفسدت الأسس الأخلاقية للحياة الاجتماعية وجعلت الناس أنانيين غلاظ الأكباد فى علاقاتهم بالحكومة الملكية. وكان على قادة المجتمع الأوربى أن يعوا الدرس المرير بأن السلطة المطلقة تدمر نفسها، لأنه لا يوجد مجتمع يمكنه أن يتحمل غياب قدر من النظام الأخلاقى دون أن يتردى فى هوة الفوضى واليأس.